وهذه المقولة لازمة من لوازم الرسُل فى دعوتهم ، سبق أنْ قالها نوح عليه السلام .

﴿ وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) ﴾

قلنا : إن هذه العبارة أول مَنْ قالها نوح - عليه السلام - ثم سيقولها الأنبياء من بعده . لكن : لماذا لم يقل هذه العبارة إبراهيم ؟ ولم يقُلْها موسى ؟

قالوا : لأن إبراهيم - عليه السلام - أول ما دعا دعا عمه آزر ، فكيف يطلب منه أجْراً ؟ وكذلك موسى - عليه السلام - أول دعوته دعا فرعون الذى ربَّاه فى بيته ، وله عليه فضل وجميل ، فكيف يطلب منه أجراً ، وقد قال له : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) ﴾ [الشعراء]

لذلك لم تأت هذه المقولة على لسان أحد منهما .

وقال : ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) ﴾ [الشعراء] لأن الربَّ هو الذى يتولَّى الخَلْق بالبذْل والعطايا والإمداد . وقلنا : إن عدم أخذ الأجر ليس زُهْداً فيه ، إنما طمعاً فى أنْ يأخذ أجره من الله ، لا من الناس .

ثم يتوجَّه إليهم ليُصحِّح بعض المسائل الخاصة بهم :

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) ﴾

وهذه خصوصية من خصوصيات قوم هود ، والرِّيع : هو المكان المرتفع ، لذلك بعض الناس يقولون : كم رِيع بنائك ؟ يعنى : ارتفاعه

كم متراً ، فكأن الارتفاع يُثمِّن البقعة ، ويُطلق الريع على الارتفاع فى كل شىء[1] .

وكلمة ﴿آيَةً .. (١٢٨)﴾ [الشعراء] بعد ﴿أَتَبْنُونَ .. (١٢٨)﴾ [الشعراء] تعنى : القصور العالية التى تعتبر آيةً فى الإبداع وجمال العمارة والزخرفة والفخامة والاتساع والرِّفْعة فى العُلُو .

وقال ﴿تَعْبَثُونَ (١٢٨)﴾ [الشعراء] لأنهم لن يخلُدوا فى هذه القصور ، ومع ذلك يُشيِّدونها لتبقى أجيالاً من بعدهم ، فعدَّ هذا عبثاً منهم ؛ لأن الإنسان يكفيه أقلّ بناء ليأويه فترة حياته .

أو ﴿تَعْبَثُونَ (١٢٨)﴾ [الشعراء] لأنهم كانوا يجلسون فى شُرفات هذه القصور يصدُّون الناس ، ويصرفونهم عن هود وسماع كلامه ودعوته التى تَلْفِتهم إلى منهج الحق .

ونحن لم نَرَ حضارة عاد ، ولم نَرَ آثارهم ، كما رأينا مثلاً آثار الفراعنة فى مصر ؛ لأن حضارة عاد طمرتْها الرمال ، وكانوا بالجزيرة العربية فى منطقة تُسمَّى الآن بالرُّبْع الخالى ؛ لأنها منطقة من الرمال الناعمة التى يصعب السير أو المعيشة بها ، لكن لكى نعرف هذه الحضارة نقرأ قوله تعالى فى سورة الفجر :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨)﴾ [الفجر]

---

(١) فى كلمة الريع أقوال :
- ما ارتفع من الأرض فى قول ابن عباس وغيره .
- الريع : الطريق ، قاله قتادة والضحاك والكلبى ومقاتل والسدى ، وابن عباس أيضاً .
- الريع : الفج بين الجبلين . قاله مجاهد .
- الريع : بنيان الحمام ، دليله « تعبثون » أى : تلعبون ، أى : تبنون بكل مكان مرتفع آية علماً تلعبون بها على معنى أبنية الحمام وبروجها . [تفسير القرطبى ٧/٥٠٠٢ ، ٥٠٠٣] .

وما دامت لم يُخلَق مثلها فى البلاد ، فهى أعظم من حضارة الفراعنة التى نشاهدها الآن ، ويفد إليها الناس من كل أنحاء العالم ليشاهدوا الأهرام مثلاً ، وقد بنيت لتكون مجرد مقابر ، ومع تقدُّم العلم فى عصر الحضارة والتكنولوجيا ، ما زال هذا البناء مُحيِّراً للعلماء ، لم يستطيعوا حتى الآن معرفةَ الكثير من أسراره .

ومن هذه الأسرار التى اهتدَوْا إليها حديثاً كيفية بناء أحجار الأهرام دون ملاط[1] مع ضخامتها ، وقد توصَّلوا إلى أنها بُنيَتْ بطريقة تفريغ الهواء مما بين الأحجار ، وهذه النظرية تستطيع ملاحظتها حين تضع كوباً مُبلَّلاً بالماء على المنضدة مثلاً ، ثم تتركه فترةً حتى يتبخر الماء من تحته ، فإذا أردتَ أن ترفعه من مكانه تجده قد لصق بالمنضدة .

وليس عجيباً أنْ تختفى حضارةٌ ، كانت أعظم حضارات الدنيا تحت طبقات الرمال ، فالرمال حين تثور تبتلع كل ما أمامها ، حتى إنها طمرتْ قبيلة كاملة بجمالها ورجالها ، وهذه هبة واحدة ، فما بالك بثورة الرمال ، وما تسفوه الريح طوال آلاف السنين ؟

وأنا واثق من أنهم إذا ما نبشوا هذه الرمال وأزاحوها لوجدوا تحتها أرضاً خصبة وآثاراً عظيمة ، كما نرى الاكتشافات الأثرية الآن كلها تحت الأرض ، وفى فيينا أثناء حفر أحد خطوط المجارى هناك وجدوا آثاراً لقصور ملوك سابقين .

وطالما أن الله تعالى قال عن عاد : ﴿ **أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ**(١٢٨) ﴾ [الشعراء] فلا بُدَّ أن هناك قصوراً ومبانىَ مطمورة تحت هذه الرمال .

---

(١) ملط الحائط : طلاه . والملاط : الطين الذى يُجعل بين سافَى البناء ويُملط به الحائط . [لسان العرب ـ مادة : ملط] .

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝١٢٩﴾

المصانع تُطلَق على موارد الماء ، وتطلق على الحصون ، لماذا ؟

قالوا : لأن الحصون لا تُبنَى للإيواء فقط ؛ لأن الإيواء يمنع الإنسان من هوام الحياة العادية ، أمّا الحصون فتمنعه أيضاً من الأعداء الشرسين الذين يتربصون به ، فكأنهم جعلوها صنعة مثمرة ، لماذا ؟

﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝١٢٩﴾ [الشعراء] يعني : أتبنون هذه الحصون هذا البناء القوى المسلح تريدون الخلود ؟ وهل أنتم مُخلَّدون في الحياة ؟ إن فترة مُكْث الإنسان في الدنيا يسيرة لا تحتاج كل هذا التحصين ، فهي كظلٍّ شجرة ، سرعان ما يزول .

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۝١٣٠﴾

والبَطْش : الأخْذُ بشدة وبعنف ، يقول تعالى : ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢﴾ [البروج] ويقول : ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٤٢﴾ [القمر]

لأن الأَخْذ يأخذ صُوراً متعددة : تأخذه بلين وبعطف وشفقة ، أو تأخذه بعنف .

ثم يزيدهم صفة أخرى تؤكد بَطْشهم ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۝١٣٠﴾ [الشعراء]

لأنك قد تأخذ عدوك بعنف ، لكن بعد ذلك يرقّ له قلبك ، فترحم ذلّته لك ، فتُهوِّن عليه وترحمه ، لكن هؤلاء جبارون لا ترقّ قلوبهم .

وهذه الصفات الثلاثة السابقة لقوم هود : ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ۝١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝١٢٩ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۝١٣٠﴾ [الشعراء]

هذه الصفات تخدم صفة التعالى ، وتسعى إلى الوصول إليه وكأنهم يريدون صفة العُلُو التى تُقربهم من الألوهية ؛ لأنه لا أحدَ أعلى من الحق سبحانه ، ثم يريدون أيضاً استدامة هذه الصفة واستبقاء الألوهية : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) ﴾ [الشعراء]

وفى صفة البَطش الشديد والجبارية يريدون التفرُّد على الغير ، والقرآن يقول : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا .. (٨٣) ﴾ [القصص]

فإنْ كنتَ تريد أداء الخدمة المنوطة بك فى الحياة ، فعليك أنْ تؤديها ، لا للتَّعالى ؛ لأنك حينئذ ستأخذ حظك من العُلُو والغَلَبة فى دار الدنيا وتنتهى المسألة ، أمَّا إنْ فعلتَ وفى بالك ربُّك ، وفى بالك أنْ تُيسِّر للناس مصالح الحياة ، فإنك تُرقِّى عملك وتُثمِّره ، ويظل لك أجره ، طالما وجد العمل ينتفع الناس به إلى أنْ تقوم الساعة ، وهذا أعظم تصعيد لعمل الإنسان .

ولم يفعل قوم عاد شيئاً من هذا ، إنما طلبوا العُلُو فى الأرض ، وبطشوا فيها جبارين ، لكن أيتركهم ربهم عز وجل يستمرون على هذه الحال ؟

إن من رحمة الله تعالى بعباده أنْ يُذكِّرهم كلما نَسُوا ، ويُوقظهم كلما غفلوا ، فيرسل لهم الرسل المتوالين ؛ لأن الناس كثيراً ما تغفل عن العهد القديم الذى أخذوه على أنفسهم : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

وقلنا : إن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يضع المناعة فى خليفته فى

الأرض ، ويعطيه المنهج الذى يصلحه ، لكنه قد يغفل عن هذا المنهج أو تغلبه نفسه ، فينحرف عنه ، والإنسان بطبيعته يحمل مناعةً من الحق ضد الباطل وضد الشر ، فإنْ فسدَتْ فيه هذه المناعة فعلى الآخر أن يُذكِّره ويُوقظ فيه دواعي الخير . ومن هنا كان قوله تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

فإنْ وجدتَ أخاك على باطل فخُذْ بيده إلى الحق .

ومعنى ﴿ وَتَوَاصَوْاْ .. (٣) ﴾ [العصر] أى : تبادلوا التوصية ، فكل منكم عُرْضة للغفلة ، وعُرْضة للانحراف عن المنهج ، فإنْ غفلتُ أنا توصينى ، وإنْ غفلتَ أنت أوصيك ، وهذه المناعة ليست فى الذات الآن ، إنما فى المجتمع المؤمن ، فمنْ رأى فيه اعوجاجاً قوَّمه .

لكن ما الحال إنْ فسدت المناعة في الفرد وفسدَتْ فى المجتمع ، فصار الناس لا يعرفون معروفاً ، ولا يُنكرون منكراً ، كما قال تعالى عن بنى إسرائيل :

﴿ كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ .. (٧٩) ﴾ [المائدة]

وعندها لا بد أن يرسل رب العزة سبحانه برسول جديد ، ومعجزة جديدة تُوقظ الناس ، وتعيدهم إلى جادة ربهم .

ومن شرف أمة محمد ﷺ أن الله تعالى جعل المناعة فى ذات نفوسها ، فجعلهم الله توابين ، إنْ فعل أحدهم الذنب تاب ورجع ، وإنْ لم يرجع وتمادى ردَّه المجتمع الإيمانى وذكَّره .

وهذه الصفة ملازمة لهذه الأمة إلى قيام الساعة ، كما ورد فى الحديث : « الخير فىَّ وفى أمتى إلى يوم القيامة »[1] .

---

(١) قال العجلونى فى كشف الخفاء (٤٧٦/١) : « قال (السخاوى) فى المقاصد (الحسنة) : قال شيخنا (ابن حجر العسقلانى) : لا أعرفه ، ولكن معناه صحيح . يعنى فى حديث : لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق إلى أن تقوم الساعة . وقال ابن حجر المكى فى الفتاوى الحديثية : لم يرد بهذا اللفظ » .

لذلك لن يأتي فيها رسول بعد رسول الله ﷺ ؛ لأن المناعة ملازمة لها في الذات ، وفي النفس اللوامة ، وفي المجتمع الإيماني الذي لا يُعدم فيه الخير أبداً .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .. (١١٠) ﴾ [آل عمران]

وهذه صفة تفردتْ بها هذه الأمة عن باقي الأمم ؛ لذلك يقول هود - عليه السلام - مُذكّراً لقومه ومُوقظاً لهم :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) ﴾

أي : أن ربكم - عز وجل - لم يتركّكم على ما أنتم عليه من الضلال تعبثون بالآيات ، وتتخذون مصانع تطلبون الخلود ، وأنكم بطشتم جبارين ، وها هو يدعوكم : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) ﴾ [الشعراء] فتقوى الله تعالى وطاعته كفيلة أنْ تُذهب ماضيكم وتمحو ذنوبكم ، بل وتُبدّله خيراً وصلاحاً ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ .. (١١٤) ﴾ [هود]

وأنا حين أُوصيكم بتقوى الله وطاعته ، لا أوصيكم بهذا لصالحي أنا ، فلا أقول لكم : اتقوني أو أطيعوني ولن أنتفع من طاعتكم بشيء . كذلك الحق - تبارك وتعالى - غني عنكم وعن طاعتكم ؛ لأن له سبحانه صفات الكمال المطلق قبل أن يخلق الخَلْق ، فهو سبحانه متصف بالخَلْق قبل أن يخلق ، وبالقدرة قبل أن يُوجَد المقدور عليه .. إلخ .

إذن : فوجودكم لم يَزِدْ شيئاً في صفاته تعالى ، وما كانت الرسالات إلا لمصلحتكم أنتم ، فإذا لم تطيعوا أوامر الله ، وتأخذوا منهجه ، لأنه يفيدكم فأطيعوه جزاءَ ما أنعم عليكم من نعَم لا تُعدُّ ولا تُحصَى ، فالإنسان طرأ على كون أُعِدَّ لاستقباله وهُيِّيء لمعيشته ،

وخلق له الكون كله : سماءً ، فيها الشمس والقمر والنجوم والسحاب والمطر ، وأرضاً فيها الخصب والماء والهواء . هذا كله قبل أن تُوجَد أنت ، فطاعتك لله - إذن - ليست تفضُّلاً منك ، إنما جزاء ما قدَّم لك من نِعَم .

وعجيب أن ترى هذه المخلوقات التى جُعلَتْ لخدمتك أطول عمراً منك ، فالإنسان قد يموت يوم مولده ، وقد يعيش عدة أيام أو عدة سنوات ، أمّا الشمس مثلاً فعمرها ملايين السنين ، وهى تخدمك دون سلطان لك عليها ، ودون أن تتدخل أنت فى حركتها .

ثم يقول تعالى :

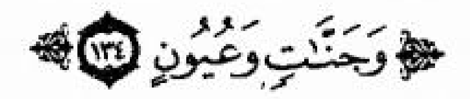
﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

لم تعدد الآية ما أمدنا الله به ، وتركتْ لنا أن نُعدِّده نحن ؛ لأننا نعرفه جيداً ونعيشه ، وندركه بكل حواسِّنا ومداركنا ، فما من آلة عندك إلا وتحت إدراكها نعمة لله ، بل عدة نِعَم ، فالعين ترى المناظر ، والأذن تسمع الأصوات ، والأنف يشم الروائح ، واليد تبطش .. إلخ .

﴿ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [الشعراء] فقولوا أنتم واشهدوا على أنفسكم وعدِّدوا نِعَم ربكم عليكم .

﴿ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

المراد بالأنعام : الضأن والماعز والإبل والبقر ، ثمانية أزواج .


﴿ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ ﴾

فإنْ قلت : فنحن نمرُّ بديارهم ، فلا نرى إلا خلاءً تسفُو فيه الرياح ، نعم لقد كانت لهم جنات وعيون هى الآن تحت أطباق التراب ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا[1] ﴿٩٨﴾ ﴾ [مريم]

﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٣٥﴾ ﴾

أى : أن تقوى الله وطاعته لا تعدُّ شكراً على نعمه فحسب ، إنما أيضاً تكون لكم وقاية من عذاب الآخرة ، فلا تظنوا أنكم أخذتُم نعَم الله ، ثم بإمكانكم الانفلات منه أو الهرب من لقائه ، فلقاؤه حق لا مفرَّ منه ، ولا مهرب ، فإنْ لم تَخَفْ السابق من النعم ، فخَف اللاحق من النِّقَم .

فماذا كان ردّهم على مقالة نبيِّهم وموعظته لهم ؟

﴿ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

وقولهم ﴿ أَوَعَظْتَ.. ﴿١٣٦﴾ ﴾ [الشعراء] دليل على أن الحق لا بُدَّ أن يظهر ، ولو على ألسنة المكابرين ، ولا يكون الوعظ إلا لمَنْ علم حكماً ، ثم تركه ، فيأتى الواعظ ليُذكِّره به ، فهو ـ إذن ـ مرحلة ثانية بعد التعليم ، فهذا القول منهم اعتراف ودليل أنهم علموا المطلوب منهم ، ثم غفلوا عنه .

وهؤلاء يقولون لنبيهم ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [الشعراء] يعنى : أرح نفسك ، فسواء علينا وعظُك وعدم وعظك ، ونلحظ أنهم قالوا : ﴿ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [الشعراء]

(١) الركز : الصوت الخفى . [القاموس القويم ١/ ٢٧٥] . والركز : صوت الإنسان تسمعه من بعيد نحو : ركز الصائد إذا ناجى كلابه . [لسان العرب ـ مادة : ركز] .

ولم يقولوا مثلاً : سواء علينا أوعظتَ أم لم تَعظْ ؛ لأن نفى الوَعْظ يُثبت له القدرة عليه .

إنما ﴿لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦)﴾ [الشعراء] يعنى : امتنع منك الوعظ نهائياً ، وكأنهم لا يريدون مسألة الوعظ هذه أبداً ، حتى فى المستقبل لن يسمعوا له .

﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (١٣٧)﴾

إنْ : بمعنى ما النافية ، يعنى : ما هذا الذى جئتَ به إلا ﴿خُلُق..(١٣٧)﴾ [الشعراء] الأولين يعنى : عادة مَنْ سبقوك واختلاقهم ، يقصدون الرسل السابقين ، كما قالوا : ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٦٨)﴾ [النمل]

وقالوا : ﴿مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥)﴾ [يس]

فوصفوا نبيهم ، ومَنْ سبقوه من الرسل بالكذب والاختلاق وإيجاد شىء لم يكن موجوداً .

والخُلُق : صفة ترسخ فى النفس تصدر عنها الأفعال بيُسْر وسهولة ، والصفات التى يكتسبها الإنسان لا تعطى مهارة من أول الأمر ، بل تعطى مهارة بعد الدُّرْبة عليها ، فتصير عند صاحبها كالحركة الآلية لا تحتاج منه إلى مجهود أو معاناة .

وسبق أن ضربنا مثلاً بالصبى الذى يتعلم مثلاً الحياكة ، وكم يعانى ويضربه معلمه فى سبيل تعلُّم لضم الخيط فى الإبرة ، حتى إذا ما تعلمها الصبى وأجادها تراه فعل ذلك تلقائياً ، ودون مجهود وربما وهو مُغْمض العينين .

وأنت حينما تتعلم قيادة السيارة مثلاً لأول مرة ، كم تعانى وتقع فى أخطاء وأخطار ؟ لكن بعد التدريب والدُّرْبة تستطيع قيادتها بمهارة ، وكأنها مسألة آلية ، وكذلك الخُلُق المعنوى ، مثل هذه الدُّرْبة والآلية فى الماديات .

إذن : ﴿خُلُقُ الأَوَّلِينَ (١٣٧)﴾ [الشعراء] يعنى : دعوى ادعوْها جميعاً - أى : الرسل .

وفى قراءة أخرى[1] تُوجه للمرسل إليهم بفتح الخاء وسكون اللام (خَلْق) أى : اختلاق والمعنى : نحن كمن سبقونا من الأمم لا نختلف عنهم : ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣)﴾ [الزخرف]

وهؤلاء السابقون قالوا : ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ .. (٢٤)﴾ [الجاثية]

فهذه الصفة أصبحت عندنا ثابتة متأصِّلة فى النفس ، فلا تحاول زحزحتنا عنها ، فالمراد : نحن مثل السابقين لا نؤمن بمسألة البعث ، فأرح نفسك ، فلن يجدىَ معنا وعظُك .

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨)﴾

يقولونها صريحة رداً على قوله : ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥)﴾ [الشعراء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩)﴾

---

(١) هى قراءة ابن كثير وأبى عمرو والكسائى . وقال الهروى : أى اختلاقهم وكذبهم . والعرب تقول : حدثنا فلان بأحاديث الخَلْق أى بالخرافات والأحاديث المفتعلة . [تفسير القرطبى ٥٠٠٥/٧] .

وكانت السماء قبل محمد ﷺ تجعل الرسول يُدلى بمعجزته ، أو يقول بمنهجه ، لكن لا تطلب منه أن يُؤدِّب المعاندين والمعارضين له إنما تتولّى السماء عنه هذه المهمة فتُوقِع بالمكذبين عذابَ الاستئصال .

وقد أُمنَتْ أمة محمد ﷺ من عذاب الاستئصال ، فمَنْ كفر برسالة محمد ﷺ لا يأخذه الله كما أخذ المكذِّبين من الأمم السابقة ، إنما يقول سبحانه : ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ .. (١٤)﴾ [التوبة]

وكلمة ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ .. (١٣٩)﴾ [الشعراء] كلمة صادقة ، لها دليل فى الوجود نراه شاخصاً ، كما يقول سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨)﴾ [الفجر]

نعم ، كانت لهم حضارة بلغتْ القمة ، ولم يكُنْ لها مثيل ، ومع هذا كله ما استطاعت أنْ تصون نفسها ، وأخذها الله أَخْذ عزيز مقتدر.

قال تعالى : ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨)﴾ [الصافات]

وقال : ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا .. (٥٢)﴾ [النمل]

أى : أنها شاخصة أمامكم ترونْها وتمرُّون عليها ، وأنتم لم تبلغوا مبلغَ هذه الحضارة ، فإذا كانت حضارتهم لم تمنعهم من أخْذ الله العزيز المقتدر ، فينبغى عليكم أنْ تتنبهوا إلى أنكم أضعف منهم ، وأن ما حاق بالكافرين وما نزل بالمكذِّبين ليس ببعيد عن أمثالهم من الأمم الأخرى .

لذلك تجد الحضارات التى تُتوَارث فى الكون كلها آلتْ إلى زوال .

ولم نجد منها حضارة بقيتْ من البداية إلى النهاية ، ولو بُنِيَتْ هذه الحضارات على قيم ثابتة لكان فيها المناعة ضد الزوال .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً .. (١٣٩) ﴾ [الشعراء] أى : فى إهلاك هذه الحضارة لأمر عظيم ، يُلفت الأنظار ، ويدعو للتأمل : ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) ﴾ [الشعراء]

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠) ﴾

قال ﴿ رَبَّكَ .. (١٤٠) ﴾ [الشعراء] ولم يقُلْ ربهم ؛ لأن منزلة المربِّى تعظم فى التربية بمقدار كمال المربِّى ، فكأنه تعالى يقول : أنا ربُّك الذى أكملت تربيتك على أحسن حال ، فَمَنْ أراد أنْ يرى قدرة الربوبية فليرها فى تربيتك أنت ، والمربِّى يبلغ القمة فى التربية إنْ كان مَنْ ربَّاه عظيماً .

لذلك يقول ﷺ : « أدَّبنى ربى فأحسن تأديبى »[1] .

إذن : فمن عظمة الحق - تبارك وتعالى - أنْ يُعطى نموذجاً لدقَّة تربيته تعالى ولعظمة تكوينه ، ولما يصنعه على عَيْنه تعالى بمحمد ﷺ ، فكأنه ﷺ أكرمُ مخلوق مُربَّى فى الأرض ؛ لذلك قال ﴿ رَبَّكَ .. (١٤٠) ﴾ [الشعراء] ولم يقل : ربهم مع أن الكلام ما يزال مُتعلقاً بهم .

وقوله تعالى : ﴿ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠) ﴾ [الشعراء] العزيز قلنا : هو الذى يَغْلب ولا يُغْلَب ، لكن لا تظن أن فى هذه الصفة جبروتاً ؛ لأنه تعالى أيضاً رحيم ، ومن عظمة الأسلوب القرآنى أن يجمع بين هاتين الصفتين : عزيز ورحيم وكأنه يشير لنا إلى مبدأ إسلامى يُربِّى

(١) قال العجلونى فى كشف الخفاء (١/ ٧٢) : « قال ابن تيمية : لا يُعرف له إسناد ثابت ، لكن قال (السيوطى) فى الدرر : صححه أبو الفضل بن ناصر . وقال (السيوطى) فى اللآلىء : معناه صحيح لكن لم يأت من طريق صحيح » .

الإسلام عليه أتباعه ، ألا وهو الاعتدال فلا تطغى عليك خصلة أو طبْع أو خُلُق ، والزم الوسط ؛ لأن كل طبْع فى الإنسان له مهمة .

وتأمل قول الله تعالى فى صفات المؤمنين :

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ .. (٥٤) ﴾ [المائدة]

فالمسلم ليس مجبولاً على الذلّة ولا على العزة ، إنما الموقف هو الذى يجعله ذليلاً ، أو يجعله عزيزاً ، فالمؤمن يتصف بالذلّة والخضوع للمؤمنين ، ويتصف بالعزّة على الكافرين .

ومن ذلك أيضاً : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩) ﴾ [الفتح]

ومعلوم أن الرحمة فى غير موضعها ضَعْف وخَوَر ، فمثلاً الوالد الذى يرفض أن يُجرى لولده جراحة خطرة فيها نجاته وسلامته خوفاً عليه ، نقول له : إنها رحمة حمقاء وعطف فى غير محلّه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) ﴾

بعد أن ذكر طرفاً من قصة إبراهيم وموسى ونوح وهود عليهم السلام ذكر قصة ثمود قوم صالح عليه السلام ، وقد تكررتْ هذه اللقطات فى عدة مواضع من كتاب الله ؛ ذلك لأن القرآن فى علاجه لا يعالج أمةً واحدة فى بيئة واحدة بخُلق واحد ، إنما يعالج عالماً مختلف البيئات ومختلف الداءات ومختلف المواهب والميول .

فلا بُدَّ أن يجمع الله له الرسل كلهم ، ليأخذ من كل واحد منهم لقطة ؛ لأنه سيكون منهجاً للناس جميعاً فى كُلِّ زمان وفى كُلِّ مكان ،

أمّا هؤلاء الرسل الذين جمعهم الله فى سياق واحد فلم يكونوا للناس كافة ، إنما كل واحد منهم لأمة بعينها ، ولقابل واحد فى زمن مخصوص ، ومكان مخصوص .

لقد بُعث محمد ﷺ ليكون رسولاً يجمع الدنيا كلها على نظام واحد ، وخُلق واحد ، ومنهج واحد ، مع تباين بيئاتهم ، وتباين داءاتهم ومواهبهم . إذن : لا بُدَّ أن يذكر الحق - تبارك وتعالى - لرسوله ﷺ طرفاً من سيرة كل نبى سبقه .

لذلك قال سبحانه : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ .. (١٢٠) ﴾ [هود]

ورسول الله ﷺ لم يكُنْ فى حاجة لأن يُثبِّت الله فؤاده مرة واحدة ، إنما كلّما تعرّض لموقف احتاج إلى تثبيت ، فيُثبِّته الله ، يقول له : تذكّر ما كان من أمر إبراهيم ، وما كان من أمر نوح وهود ... إلخ فكان تكرار القصص لتكرار التثبيت ، فالقصة فى القرآن وإنْ كانت فى مجموعها مكررة ، إنما لقطاتها مختلفة تؤدى كُلٌّ منها معنى لا تؤديه الأخرى .

وهنا يقول سبحانه كما قال عن الأمم السابقة : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) ﴾ [الشعراء] لأن الرسل جميعاً إنما جاءوا بعقيدة واحدة ، لا يختلف فيها رسول عن الآخر ، وصدروا من مصدر واحد ، هو الحق تبارك وتعالى ، ولا يختلف الرسل إلا فى المسائل الاجتماعية والبيئية التى تناسب كلاً منهم .

لذلك يقول تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ .. (١٦٣) ﴾ [النساء]

وقال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا

إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣)﴾ [الشورى]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤)﴾

قال هنا أيضاً : ﴿أَخُوهُمْ.. (١٤٢)﴾ [الشعراء] ليرقِّق قلوبهم ويُحنِّنها على نبيهم ﴿أَلا تَتَّقُونَ (١٤٢)﴾ [الشعراء] قلنا : إنها استفهام إنكارى . تعنى : اتقوا الله ، ففيها حَثٌّ وحَضٌّ على التقوى ، فحين تُنكر النفى ، فإنك تريد الإثبات .

ولما كانت التقوى تقتضى وجود منهج نتقى الله به ، قال : ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣)﴾ [الشعراء] وما دُمْتُ أنا رسول أمين لن أغشكم ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤)﴾ [الشعراء] وكرر الأمر بالتقوى مرة أخرى ، وقرنها بالطاعة .

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥)﴾

فكأن العمل الذى أقدمه من أجلكم ـ فى عُرْف العقلاء ـ يستحق أجراً ، فالعامل الذى يعمل لكم شيئاً جزئياً من مسائل الدنيا يزول وينتهى يأخذ أجراً عليه ، أما أنا فأقدِّم لكم عملاً يتعدَّى الدنيا إلى الآخرة ، ويمدّ حياتك بالسعادة فى الدنيا والآخرة ، فأجْرى ـ إذن ـ كبير ؛ لذلك لا أطلبه منكم إنما من الله .

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾﴾

يريد أن يُوبِّخهم : أتظنون أنكم ستخلُدون فى هذا النعيم ، وأنتم آمنون ، أو أنكم تأخذون نِعَم الله ، ثم تفرُّون من حسابه ، كما قال سبحانه :

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون]

فمَنْ ظن ذلك فهو مخطىء قاصر الفهم ؛ لأن الأشياء التى تخدمك فى الحياة لا تخدمك بقدرة منك عليها ، فأنت لا تقدر على الشمس فتأمرها أنْ تشرق كل يوم ، ولا تقدر على السحاب أن ينزل المطر ، ولا تقدر على الأرض أن تعطيها الخصوبة لتنبت ، ولا تقدر على الهواء الذى تتنفسه .. إلخ وهذه من مُقوِّمات حياتك التى لا تستطيع البقاء بدونها .

وكان من الواجب عليك أن تتأمل وتفكر : مَن الذى سخَّرها لك ، وأقدرك عليها ؟ كالرجل الذى انقطع فى الصحراء وفقد دابته وعليها طعامه وشرابه حتى أشرف على الهلاك ، ثم أخذته سِنَة أفاق منها على مائدة عليها أطايب الطعام والشراب ، بالله ، أليس عليه قبل أنْ تمتد يده إليها أنْ يسأل نفسه : مَنْ أعدَّ لى هذه المائدة فى هذا المكان ؟

كذلك أنت طرأتَ على هذا الكون وقد أُعدَّ لك فيه كل هذا الخير ، فكان عليك أن تنظر فيه ، وفيمَنْ أعدّه لك . فإذا جاءك رسول من عند الله ليحلَّ لك هذا اللغز ، ويخبرك بأن الذى فعل كل هذا هو الله ، وأن من صفات كماله كذا وكذا ، فعليك أن تُصدِّقه .

لأنه إما أن يكون صادقاً يهديك إلى حَلٍّ لغز حار فيه عقلك ، وإما هو كاذب ـ والعياذ بالله وحاشا لله أن يكذب رسول الله على الله

ـ فإن صاحب هذا الخلق عليه أن يقوم ويدافع عن خَلْقه .

ويقول : هذا الرسول مُدَّعٍ وكاذب ، وهذا الخَلْق لي . فإذا لم يقُمْ للخَلْق مُدَّعٍ فقد ثبتتْ القضية لله تعالى إلى أنْ يظهر مَنْ يدَّعيها لنفسه .

﴿ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) ﴾

وقوله تعالى : ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) ﴾ [الشعراء] امتداد للآية السابقة ، يعني : لا تظنوا أن هذا يدوم لكم . و (جنات) : جمع جنة ، وهي المكان المليء بالخيرات ، وكل ما يحتاجه الإنسان ، أو هي المكان الذي إنْ سار فيه الإنسان سترتْه الأشجار ؛ لأن جنَّ يعني ستر . كما في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ .. (٧٦) ﴾ [الأنعام] أي : ستره .

ومنه الجنون . ويعني : ستْر العقل . وكذلك الجنة ، فهي تستر عن الوجود كله ، وتُغنيك عن الخروج منها إلى غيرها ، ففيها كل ما تتطلبه نفسك ، وكل ما تحتاجه في حياتك .

ومن ذلك ما نسميه الآن (قصراً) لأن فيه كل ما تحتاجه بحيث يقصرك عن المجتمع البعيد .

وقال بعدها : ﴿ وَعُيُونٍ (١٤٧) ﴾ [الشعراء] لأن الجنة تحتاج دائماً إلى الماء ، فقال ﴿ وَعُيُونٍ (١٤٧) ﴾ [الشعراء] ليضمن بقاءها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) ﴾

النخل من الزروع ، لكن خصَّ النخل بالذِّكْر ، لأن رسول الله ﷺ اهتم به ، وشبَّهه بالمؤمن في الحديث : « إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها »[1] قال الراوي : فوقع الناس في شجر البوادي ،

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٦١ ، ٩ مواضع أخرى) وكذا مسلم في صحيحه (٢٨١١) كتاب صفات المنافقين ، وأحمد في مسنده (٢/٦١ ، ١٢٣) من حديث عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما .

ولم يهتدوا إليها ، فلما خرج عمر وابنه عبد الله قال : يا أبى ، لقد وقع فى ظنى أنها النخلة ؛ لأنها مثل المؤمن كل ما فيه خير .

نعم لو تأملتَ النخلة لوجدتَ أن كل شيء فيها نافع ، وله مهمة ، وينتفع الزارع به ، ولا يُلْقَى منها شيء مهما كان بسيطاً . فالجذوع تُصنع منها السوارى والأعمدة ، وتُسقف بها البيوت قبل ظهور الخرسانة ، ومن الجريد يصنعون الأقفاص ، والجزء المفلطح من الجريدة ويسمى (القحف) والذى لا يصلح للأقفاص كانوا يجعلونه على شكل معين ، فيصير (مقشّة) يكنسون بها المنازل .

ومن الليف يصنعون الحبال ، ويجعلونه فى تنجيد الكراسى وغيرها ، حتى الأشواك التى تراها فى جريد النخل خلقه الله لحكمة وبقدَر ؛ لأنها تحمى النخلة من الفئران أثناء إثمارها ، والليف الذى ينمو بين أصول الجريد جعله الله حماية للنخلة ، وهى فى طور النمو ، وما تزال غَضَّة طرية ، فلا يحمى بعضها على بعض .

إذن : هى شجرة خيِّرة كالمؤمن ، وقد تم أخيراً فى أحد البحوث أن أخذوا الجزء الذى يسمى بالقحف ، وجعلوه فى تربة مناسبة ، فأنبتوا منه نخلة جديدة .

لذلك لما قال ابن عمر : إنها النخلة . ذهب عمر إلى رسول الله ، وحكى له مقالة ولده ، فقال ﷺ : « صدق ولدك » فقال عمر : (فوالله ما يسرنى أن فَطِن ولدى إليها أن لى حمر النعم)[1] .

---

(١) قال ابن عمر لأبيه عمر : ذكرت ذلك لعمر ، قال : « لأن تكون قلت : هى النخلة ، أحبّ إلىّ من كذا وكذا » وهو لفظ مسلم . وفى رواية عند أحمد (٢/١٢٣) أن عمر قال لابنه : « يا بنى ، ما منعك أن تتكلم . فو الله لأن تكون قلت ذلك أحب إلىّ من أن يكون لى كذا وكذا » .

والذين يزرعون النخيل يرونَ فيه آيات وعجائب دالّة على قدرة الله تعالى .

ومعنى ﴿ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الشعراء] الطّلْع : هو الكوز الذى تخرج منه الشماريخ فى الأنثى ويخرج منه المادة المخصبة فى الذكر ، والتى قال الله عنها : ﴿ قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ .. ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأنعام]

وفى الذّكر يخرج من الكوز المادة المخصِّبة للنخلة ، وللقنْوان أو الشماريخ أطوار فى النمو يُسمُّونه (الخلا) ، فيظل ينمو ويكبر إلى أنْ يصل إلى نهايته حَداً حيث يجمد على هذه الحالة ، ويكتمل نموه الحجمى ، ثم تبدأ مرحلة اللون .

يقولون (عقَّر) النخل : يعنى شاب خضرته حمرة أو صفرة[1] . فإذا اكتمل احمرار الأحمر واصفرار الأصفر ، يسمى (بُسْر) ثم يتحول البُسْر إلى (الرطب) حيث تلين ثمرته وتنفصل قشْرته ، فإنْ كان الجو جافاً فإنَّ الرُّطَب ييْبس ، ويتحول إلى (التمر) حيث تتبخَّر مائيته ، وتتماسك قشْرته ، وتلتصق به .

ومعنى ﴿ هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الشعراء] يعنى : غَضٌ ورَطْب طرىٌ ، وهذا يدل على خصوبة الأرض ، ومنه هضم الطعام حتى يصير ليِّناً مُسْتساغاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ[2] ﴿١٤٩﴾ ﴾

---

(١) العَفار : تلقيح النخل وإصلاحه ، وعفَّر النخل : فرغ من تلقيحه . [لسان العرب - مادة : عفر] .

(٢) هذه الكلمة فيها قراءتان :

- فرهين : بغير ألف ، قراءة ابن كثير وأبى عمرو ونافع .

- فارهين . بالف . وهى قراءة الباقين . قاله القرطبى فى تفسيره (٥٠٠٩/٧) . قال أبو عبيد وغيره : وهما بمعنى واحد . وقال الفراء : معنى فارهين : حاذقين . والفره : النشيط الأشر . والفراهة : النشاط . [انظر لسان العرب - مادة : فره] .

وحين تذهب إلى مدائن صالح تجد البيوت منحوتةً فى الجبال كما ينحتون الآن الأنفاق مثلاً ، لا يبنونها كما نبنى بيوتنا ، ومعنى ﴿ فَارِهِينَ (١٤٩) ﴾ [الشعراء] الفاره : النشط القوى ظاهر الموهبة ، يقولون : فلان فاره فى كذا يعنى ؛ ماهر فيه ، نشط فى ممارسته .

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) ﴾

المسرف : هو الذى يتجاوز الحدَّ ، وتجاوز الحدِّ له مراحل ؛ لأن الله تعالى أحلَّ أشياء ، وحرَّم أشياء ، وجعل لكل منهما حدوداً مرسومة ، فالسَّرَف فيما شرع الله أن تتجاوز الحلال ، فتُدخل فيه الحرام .

أو : يأتى الإسراف فى الكَسْب فيدخل فى كَسْبه الحرام . وقد يُلزم الإنسان نفسه بالحلال فى الكسب ، لكن يأتى الإسراف فى الإنفاق فينفق فيما حرَّمه الله . إذن : يأتى الإسراف فى صور ثلاثة : إما فى الأصل ، وإما فى الكسب ، وإما فى الإنفاق .

ونلحظ أن الحق ـ تبارك وتعالى ـ حينما يكلمنا عن الحلال ، يقول سبحانه : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا .. (٢٢٩) ﴾ [البقرة]

أما فى المحرمات فيقول سبحانه : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا .. (١٨٧) ﴾ [البقرة] أى : ابتعد عنها ؛ لأنك لا تأمن الوقوع فيها ، ومَنْ حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . فلم يقل الحق سبحانه مثلاً : لا تُصلُّوا وأنتم سكارى . إنما قال : ﴿ لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ .. (٤٣) ﴾ [النساء]

والمعنى : خُذ الحلال كله ، لكن لا تتعداه إلى المحرَّم ، أما المحرَّم فاحذر مجردَ الاقتراب منه ؛ لأن له دواعى ستجذبك إليه .

ونقف عند قوله تعالى : ﴿ وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) ﴾ [الشعراء] حيث لم يقل : ولا تسرفوا ، وكأن ربنا ـ عزَّ وجلَّ ـ يريد